سجون البلشفك

بين الذين قبض عليهم البلشفك في روسيا وسجنوهم ثم قيضت لهم النجاة رجل انكليزي اسمهُ هنري بيرصن فكتب مقالة في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية وصف فيها ما لقيهُ هو ورفاقهُ في السجن مما تظهر فيهِ اخلاق البلشفك واغراضهم قال

اقمت في روسيا خمساً وعشرين سنةً وكنت في خلالها التفت الى قلعة مار بطرس وبولس (سجن مشهور) واسمع ما يقولهُ الذين يعرفون ما يقترف فيها من الفظائع والمنكرات وقلما خطر ببالي ان يقضى عليَّ يوماً ما بدخولها سجيناً

اتُّهمتُ بانني قاتل وحكم عليَّ بالقتل وقيل لي ان الحكم سينفَّذ بعد بضع ساعات وهاك تفصيل ذلك

خرجت من بيتي عصر الحادي والثلاثين من اغسطس الماضي قاصداً السفارة البريطانية ومعي رزمة صغيرة فيها قليل من السندويش (قطع رقيقة من الخبز بينها شيء من الادام) فوصلتها بُعَيد الساعة الرابعة وقضيت شغلي فيها وعزمت على الرجوع واذا بضجة وصوت طلق ناري وفر من الرجال بثياب البحارة وعلى وجوههم سمات الشر يقودهم بعض الضباط دخلوا الغرفة التي كنت فيها مع اثنين من رجال السفارة فاحاطوا بنا وامرونا ان نرفع ايدينا والاَّ اطلقوا الرصاص علينا فرفعنا ايدينا وامرونا فسرنا امامهم الى الغرفة الكبرى حيث كانوا قد جمعوا اكثر رجال السفارة . واقتدت انا الى قرب غرفة الاستقبال التي كان سفيرنا السابق يستقبل الضيوف فيها وللحال ابتدأ اطلاق الرصاص فحسبت انهم عازمون ان يفتكوا بنا كلنا وحاولت الهرب ولم اكد اصل الى الممشى حتى رأيت ضابطاً اصابهُ الرصاص في بطنهِ وهو يزعق في حشرجة الموت فهرولت نازلاً على السلم واذا بنفر آخر من البحارة وهم يشيرون اليَّ وينادون اقتلوهُ اقتلوهُ لكنهم لم يقتلوني بل جروني واخرجوني من باب السفارة ووضعوني في اوتوموبيل وبداي مرفوعتان وهم يتوعدونني بالقتل ان انا انزلتهما . وسدَّد واحد منهم مسدسهُ نحو رأسي يتوعدني باطارة دماغي ان التفت يمنةً او يسرةً وهو لا ينطق الاَّ بالمعنات والشتائم والطف نعت كان ينعتني بهِ « الانكليز الملاعين » « الانكليز

القصوص قطاع الطرق » وقال ان لا بدّ من قتلنا كلنا بدل الذين قُتلوا من رجالهم في مرمان واركنجل. ولما وصلنا الى المخفر وجدت القنصل وذهوس وكانوا قد تبعوا عليه وعلى كل رجال السفارة وقيس الكنيسة الانكليزية في بتروغراد فاخبروني بما حدث في السفارة وبقتل الكبتن كروي الذي كان مديراً للغواصات البريطانية في بحر البلطيك . فان البلشفك كانوا يبحثون عنهُ الى ان عثروا من جراسيمهم انهُ في دار السفارة فهجموا عليها وفتكوا بهاربهم من الفدوية لاردعهم شيء ولا يعفون عن جريمة واكثرهم من الجناة . ولما قتلوه مثّلوا بهِ تمثيلاً شنيعاً. لكنهم ادعوا انهُ هو اطلق الرصاص عليهم اولاً وقتل ثلاثة من ضباطهم

وأُخذنا واحداً واحداً للتحقيق وكنت واقفاً قرب الباب فأُخذت اولا واوقفت امام ضابطين من البلشفك وأُمرت ان اجيب عما يسألاني وشرع احدهما يشتمني باقبح انواع الشتائم وطلب مني ان اخبرهُ لماذا حارب الانكليز البلشفك في مرمان واركنجل ولماذا تواطأت حكومتنا على روسيا مع الحرس الابيض والزيكوسلوفاك وكل اعداء الثورة وكيف تجاسرنا على قتل رفيقهم اورتزكي. فقلت لهُ انني اقمت في روسيا ٢٥ سنة لم اتعرّض فيها لسياستها الداخلية واذا شاء ان يبحث عن اعمال حكومتي فليسأل رجالها اما انا فلست مسؤولاً الاّ عن اعمالي الخاصة . فادّعى انني كنت في السفارة لكي اشترك في المؤامرة على البلشفك وانني اشتركت في قتل رفاقهم. فانكرت ذلك كل الانكار فصرخ الضابط الآخر وقال انني كذاب وانهُ هو رآني اطلق الرصاص من مسدس في يدي ثم رميت المسدس وهربت . فقلت لهُ ان يراعي ذمتهُ حينما يتكلم . فزاد صخباً وصياحاً . ثم كتبوا اقراري كما قررتهُ وقالوا لي ان انتظر تحقيقاً آخر واستدعوني بعد ساعة الى امام الضابط الثاني الذي بالغ في شتمي وادّعى انهُ رآني اطلق الرصاص . وكان الغيظ قد اخذ منهُ كل مأخذ فصار كالمجنون وصوّب مسدسهُ نحو رأسي وتوعدني بالقتل وقال ان كل الانكليز خداعون خنازير محتالون وان البلشفك سيثبتون للثورة في انكلترا واقسم مراراً انني سأُقتل بعد ساعة مثل الكلب وتأييداً لقوله كتب بيده الامر بقتلي بجراحهِ وهو امر لا مردّ لهُ

ثم اخذوني الى غرفة في اعلى المكان فيها نحو عشرين سريراً من غير اغطية ومقاعد من الخشب قرب جدرانها وسبعة وتسعون سجيناً . والغرفة مملوءة

بالاقدار وانواع الخشرات وكان بين هؤلاء المسجونين لصوص من الخبث اللصوص والى جانبهم قواد من قواد الجيش الروسي وضباط من ضباطه وامراء واعيان من كل الطبقات ورجال من كبار العلماء وذنبهم الوحيد انهم لم يجاروا البلشفيك . وهذا ذنب كل المتعلمين في روسيا لانهم لا يرون في حركة البلشفك غير الضرر لبلادهم . وتركنا من غير طعام مطلقاً يومين كاملين فكان غذائي الوحيد قطعتا السندويش اللتان بقيتا معي . وفي اليوم الثالث جاءني شيء من الطعام من بيتي فسمح لي باكله . وبعد يومين آخرين أخرجنا من ذلك السجن وقيل اننا سنرسل الى سجن مار بطرس وبولس فتمثلت امام عيني كل الفظائع التي كنت اسمع انها ترتكب في ذلك السجن ولكننا صممنا انا ورفاقي من الانكليز ان نخفي الكمد ونظهر الجلد وجعلنا نمزح ونضحك . فقيل لنا ان ضحكنا سينقلب بكاء ومزحنا الماً . وسير بنا اربعة اربعة والحراس حولنا ولم نكد نخرج الى الشارع حتى رأيت ابنتي الصغيرة ومعها رزمة من الطعام وكان قد مضى عليها خمس ساعات منتظرة وهي تتوسل الى الحراس ليسمحوا لها بالدخول وهم يتهددونها باطلاق الرصاص عليها لكنها تشجعت وبقيت واقفة الى ان مررنا امامها فاعطتني الرزمة فكانت قوتي اربعة ايام لا طعام غيرها . وكنا نرى الناس في طريقنا يبدون من الشفقة علينا ما حرك عواطفنا ولكنهم كانوا يخشون ان يفوهوا بكلمة . وقد رأيت بعض النساء يبكين لما رأينا او يضعن ايديهن على عيونهن لكي لا يرين شيئاً من شدة تألمهن . وسارت ابنتي وراءنا كل الطريق ولما وصلنا الى باب السجن ناديتها وودعتها حاسباً انه الوداع الاخير

وكان يقودنا في الطريق كله شاب في نحو السابعة عشرة من العمر وهو راكب اوتوموبيلاً فاخراً . ولما وصلنا الى السجن سلمنا الى مديره وهذا ايضاً شاب منفوخ فامرنا ان نصطف اثنين اثنين . وسير بنا في ممرات كثيرة وكان المسجونون في الغرف على جانبيها يتطلعون من الكوى الصغيرة التي في ابواب غرفهم ليرونا وهم صفر الوجوه نخاف جداً من الجوع تكاد عيونهم تخرج من اوقابها . واخيراً وصلنا الى غرفة وأمر الانكليز منا وكنا خمسة ان نقف هناك ففتح الحارس بابها واذا فيها خمسة عشر من الروس جالسين على ارضها فكاد يغمى علينا من الرائحة الخبيثة المنتشرة منها

أيصدق ان غرفة طولها ستة امتار وعرضها ثلاثة وعلوها مترات ونصف متر

وليس لها الاَّ كوة واحدة صغيرة جداً قرب سقفها وباب صغير فيهِ كوة قرب وسطهِ طولها خمس بوصات وعرضها اربع وفيها سرير واحد من الحديد ولا فراش عليهِ ولا غطاء ولا لحدة سجن فيها خمسة عشر رجلا وزاد عددهم بنا الآن فصار عشرين ولا مكان للجلوس غير الارض وهي من السمنت البارد المشحون بالهوام على انواعها . مضى على اكثر الروس اشهر في تلك الغرفة فامسوا جلداً وعظماً وكان قد مرَّ عليهم ما رأيناهم اربعة ايام لم يذوقوا طعاماً . فاستولى عليهم اليأس وشغلهم القذر وما ذنبهم . بعضهم كانوا من ضباط الجيش وبعضهم من الذين ابوا دخول الجيش الاحمر . وكلهم متعلمون متهذبون من البيوتات الكبيرة وما منهم من حاول مقاومة البلشفك بالقوة . لمَّا علموا اننا انكليز حشروا بعضهم بعضاً لكي يوسعوا لنا مكاناً واعطونا افضل مكان اي قرب الباب لكي نستطيع ان نستنشق شيئاً من الهواء لحشرنا كلنا كالسردين وضاقت انفاسنا حتى كدنا نختنق . وكان اكثرهم يتكلمون الانكليزية وبعضهم يحسنها ويحسن الفرنسوية والالمانية . وغاية ما كانوا يتمنونهُ ان تأتي الجنود الانكليزية وتحرر البلاد من البلشفك والجيش الاحمر . وكان اهاليهم واصدقاؤهم يرسلون اليهم الطعام ولكن مدير السجن كان يمنع وصولهُ اليهم . ونساؤهم وامهاتهم واخواتهم كنَّ يأتينهم كل يوم بشيء من الطعام والثياب والاحرمة ولكن مدير السجن كان يطردهنَّ ويتوعدهنَّ بالقتل اذا لم ينصرفن حالاً . وجاءتني ابنتي بدلة طعام في اليوم السادس ولكن لم يسمح بايصالها اليَّ الاَّ بعد يومين وكان فيها لحم فائق ودوَّد . وكان السجن يقدم الى كلٍّ منا كل يوم قليلاً من الماء الساخن وفيهِ شيء من الكرنب حاسباً اياهُ شوربا وسمكتين متعفنتين فاسدتين . ورشونا احد السجانين حتى اوصل خبرنا الى سفير هولندا فتمكن من جعل الطعام الذي يأتينا من بيوتنا يرسل مرتين في الاسبوع الى السفارة الهولندية فتأتينا بهِ زوجة السفير نفسها . ولولاهُ ولولا زوجتهُ لقتلوا اكثرنا كما علمت بعد ذلك

وكثيراً ما حاولنا ان نطيِّب قلوب الروس المسجونين معنا ولكن كانت نفوسهم قد صغرت وتولاهم القنوط التام

في الليلة الثالثة من دخولنا هذا السجن ايقظنا الحرس الاحمر وفتحوا الباب وامرونا ان نخرج الى الممشى الذي امامهُ وقيل لنا حينئذٍ اننا مرسلون الى نهر نيفا

ومنهُ الى سجن كرنستاد وهو يُنشى اكثر من سجن مار بطرس وبولس وسيبريا عدواً وكان بيننا شيوخ في السبعين والثمانين فكان الحرس الاحمر يضربهم بخشب البنادق كلما عجزوا عن الجري او تعثروا في الطريق فيقع بعضهم ويعجزون عن النهوض فيريغ عليهم اولئك الشياطين بارفس والشتائم ويقبضون على لحاهم البيضاء ويجرونهم بها وهم اقرب الى الاموات منهم الى الاحياء . وحالما وصلنا الى الباب الخارجي صدر الامر باذ يعود الانكليز والفرنسويون منا الى سجنهم

ولا ازال الى الآن وقلبي يكاد ينفطر حينما افكر فيما حلّ باولئك المنكودي الحظ الذين كانوا معنا من الروس فاني احببتهم وتعلّق قلبي بهم لما رأيتهُ فيهم من الدعة وكرم الاخلاق والتسليم لقضاء الله من غير ان يفوهوا بكلمة سوء على معذبيهم . صافحونا والكآبة تعلو وجوههم ثم علمنا ان اولئك الاشرار طرحوا اكثرهم في نهر نيفا وهم سائرون بهم الى كرونستاد . كانت ام واحد منهم تأتي كل يوم الى باب السجن تبكي وتتضرع لتعلم شيئاً عن ابنها فقيل لها اخيراً ان تصلي لاجل نفسهِ . والذين لم يطرحوا في النهر قُتلوا رمياً بالرصاص والقلال الذين لم يقتلوا تركوا ليموتوا جوعاً في سجن كرونستاد

ولما عدنا الى سجننا وُضع كل عشرة منا في غرفة فتحسنت حالنا قليلاً وللحال جعلنا ننظف غرفنا ونقتل ما فيها من القمل والبق ولكننا لم نستطع استئصالهُ لكثرتهِ . وكنا نغني بعض اغانينا الوطنية تخفيفاً للسآمة فامرنا الحرس الاحمر ان نصمت فلم نفعل فزاد لجاجة وزدنا عناداً وكان معنا مكاتبو بعض الجرائد الانكليزية الستندرد والديلي كرونكل والديلي اكسبرس والمورننج بوست . وتمكن مكاتب الديلي كرونكل من برطلة الحراس حتى ارسلوا لهُ رسالتين الى جريدتهِ فوصلتا اليها واما الرسالة الثالثة فلم تصل والجندي الذي استلمها اختفى اثرهُ

ووجدنا في سجننا اسماء كثيرين من رجال الروس الذين سُجنوا فيهِ قبلنا مثل برنستف الثوري الذي ذاق الامرّين في عهد القيصر ثم قضى عليهِ البلشفك كرجمي ومقاوم للثورة . وشنفارف زعيم المدارس الحربية فانهُ أُخذ من هناك هو وكوكشكين الزعيم الآخر بحجة انهما مريضان ويراد نقلهما الى المستشفى وقتلا صبراً . وهناك غرف اخرى سجن فيها كثيرون من قوّاد الجيش وغيرهم من اشراف البلاد وواحد من اولئك القواد كان في الثمانين من عمره باحية بيضاء طويلة ووجههُ

طلق بشوش وتدلقينة في الاوقات النادرة التي كنا نخرج فيها الى المشى لنمشي فيهِ خمس دقائق . وكان مامور السجن ورجالهُ شديدي النكره لهؤلاء القواد بنوع خاص فسدوا الكوة الصغيرة التي في باب سجنهم وبعد يومين جعلت النساء اللواتي يدخلن الطعام الى المسجونين ورجون من المدير ان يفتح لهن الباب فوجدن اكثر اولئك المنكودي الحظ منطرحين على الارض عند اسفل الباب ليستنشقوا القليل من الهواء الداخل من هناك . وما اصدق ما قيل ان البلشفك ابالسة في ثياب البشر

ومرت الايام ولم يسمح لاحد ان يرانا وانما كان يسمح لنا ان نخرج الى المشى مرة كل اسبوع او اسبوعين ونقيم فيهِ خمس دقائق لا غير . وهو رطب مظلم لا يفرق عن السجن ولكننا كنا نحسبهُ جنة لاننا كنا نتحدث فيهِ مع غيرنا من المساجين . ونحن البريطانيين كنا اربعة وخمسين رجلاً قبض على نحو نصفنا في دار السفارة وعلى الباقين في الشوارع

ولم يسمح لنا ان نكاتب احداً ولكننا خالفنا هذا القانون كما تقدم . ولم يسمح ان يأتينا كتاب او جريدة ولكننا رطلنا الحراس فاتونا بنسخ من بعض الجرائد . وكان البلشفك قد الغوا الجرائد كلها واخذوا مطابعها وسجنوا اصحابها ومحرريها ولم يبقوا الاَّ ثلاثاً منها تقلب الحقائق وتتفنى بمدحهم فقرأنا في احداها مذكرة المستر بلفور حينما طلب عقاب الذين قتلوا كروبي والافراج عن كل البريطانيين فسررنا بها وسرَّ الروس معنا . ويليها رد تشترين بما فيهِ من العلف . وبعد نهاية اربعة اسابيع أُطلق رجال السفارة كلهم وعدتهم سبعة عشر فسررنا بالافراج عنهم ولكننا زدنا غماً لاننا لم نعلم ماذا يحل بنا . ومرَّت ثلاثة اسابيع اخرى ونحن على مثل جمر الغضا واصابني زكام شديد وضعفٌ في قلبي

ويوم الاحد في العشرين من اكتوبر سمعت صوت السجان يقول لي استعد للخروج وفي اقل من دقيقتين تبعتهُ بقلب خافق ورجلين مصطكتين الى ان وصلنا الى غرفة المدير وانتظرت هناك ساعتين ونصف ساعة فاعطيت ورقة الافراج عني وخرجت التكج وحالما وقع نظري على السماء بعد ان مرَّ عليَّ خمسون يوماً لم ار وجهها كاد يغمى عليَّ . وبيتي بعيد عن السجن عشرة اميال فوصلت اليهِ بعد التيه والتي وانا اشكر الله واتوسل اليهِ ان ينجي بلادي من شر البلشفكية التي هي اشتراكية تولاَّ ها الجنون (المقتطف . ومعنى البلشفك الغلاة او المتطرفون)